مسلك القرآن الكريم في الاستدلال على وجود الله

للدكتور علي بن محمد بن ناصر الفقيهي

عميد شئون المكتبات بالجامعة

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

أ_ التمهيد.

ب_ المباحث.

المبحث الأول: دليل الخلق ويشمل:

أ_ خلق السماء.

ب_ خلق الأرض.

ج_ خلق الإنسان، وظاهرة الحياة.

المبحث الثاني: دليل العناية.

المبحث الثالث: دليل النظام.

المبحث الرابع مسلك المتكلمين والفلاسفة في إثبات وجود الله.

تمهيد:

معرفة الله والإقرار بوجوده غريزة فطرية في الإنسان، إذ كل واحد من بني آدم يقر بوجود الخالق ويعترف به، أما ما يظهر على بعض الملحدين من الكفر بالله والاستهزاء بمن دعاهم إلى عبادته، فإن ذلك لا يعني الكفر المطلق المبني على اليقين الكامل، وإنما هو انحراف في الطبيعة الإنسانية، وتحويل للغريزة الفطرية المتجهة إلى الخالق الحق إلى عبادة المخلوقات الأخرى، ولذا فإننا نجد ذلك الملحد يستعمل سبل المغالطات والتفسيرات الخاطئة للأشياء تضليلا وتمويها على السذج من أتباعه، وقد صور لنا القرآن الكريم قصة أكبر مغالط ملحد بلسانه غير جازم بقلبه، ذلك المغالط هو فرعون الذي استخف قومه فأطاعوه، فحينما جاءه موسى عليه السلام بالبينات والهدى ودعاه إلى عبادة رب الأرض والسماء، ورب العالمين جميعا، كما أمره الله تبارك وتعالى بقوله: **{فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** (الشعراء /16).

استكبر فرعون، وجحد رب العالمين، بل ادعى أنه لا يعلم لقومه إلها غيره قال تعالى على لسانه: **{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}** (الشعراء /23)، وقد أخبر المولى جل وعلا عنه أن ذلك الإنكار الصادر منه مغالطة بلسانه، وأنه غير مطابق للحقيقة المستقرة في نفسه، قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطبا فرعون: **{قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً}** (الإسراء /102) فالانحراف والميل عن الخط السوي أمر طارئ على البشرية،

وذلك حين فساد الفطرة [1]. لأن البرهان على وجود الخالق حقيقة محسوسة وأمر واضح غاية الوضوح إذ الإنسان يعيش، ويحيا في هذا الكون، فيشاهد في نفسه، وفي الأشياء من حوله تغيرا مستمرا، إذ تنعدم أشياء وتوجد أخرى كما يشاهد دقة وتنظيما [2] في كل ما يرى ويلمس فيصل من هذا عن طريق الإدراك الحسي إلى أن لهذه الأشياء موجدا أوجدها ومنسقا لسيرها وحركاتها أراد ذلك منها، وهذا أمر طبيعي جدا غير بعيد عن فهم أي إنسان مهما كان إدراكه، فإذا شاهد الإنسان بيتا منظما ومنسقا أو سمع صوتا، أو أحس بضربة سوط، ولم ير الضارب أو الباني أو صاحب الصوت فإنه يوقن أن لهذا البيت بانيا، وأن هذا الصوت صادر عن شيء سواء أكان رجلا أو حيوانا، أم آلة، وأن تلك الضربة حدثت من ضارب، فكان وجود الشيء الذي نتج عنه بناء البيت، أو ظهور الصوت، أو حدوث الضرب أمرا قطعيا عند من شاهد البيت أو سمع الصوت أو أحس بالضرب، إذ قام البرهان الحسي على وجوده، فالاعتقاد بوجود سبب أوجد هذه الظواهر أمر مسلم به عند العقلاء.

فكذلك الإنسان يشاهد تغير الأشياء الموجودة فتنعدم أشياء ويحدث غيرها كما أنه يرى النظام البديع في العالم، والدقة المتناهية في سير بعض المخلوقات وترتيب حركاتها وضبط مواعيدها، فيدرك أن هذا الإبداع وذلك النظام وذاك التغيير لا يمكن أن يحدث من نفس تلك الأشياء، لأنها عاجزة عن إيجاده، كما أنها عاجزة عن دفعه كل ذلك يدعو إلى الإيمان بوجود خالق لهذه الموجودات، قائم بتدبيرها، منظم لها.

ومن هنا نرى أن وجود هذا الخالق الذي دل عليه وجود هذه الأشياء من الأمور القطعية، الذي

---

[1] وما قررناه من أن الإقرار بوجود الخالق أمر فطري، وهو الأصل الذي نشأ عليه الإنسان وأن الانحراف أمر طارئ على الإنسانية، وذلك حين فساد الفطرة، هو ما قرره الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين ج 1 ص93 و94 مطبعة شركة دار الكتب العربية الكبرى بمصر) وشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (منهاج السنة وحكاه عن الجمهور ج 2 ص202 تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم مطبعة المدني القاهرة سنة 1382هـ-1962م) وابن القيم في كتابه (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق محمد سيد كيلاني الطبعة الأخيرة سنة 1381هـ1961م)ج2 ص152.

[2] يقول كلودم: "هاشاوي مستشار هندسي، ومصمم العقل الإلكتروني للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة لانجلي فيلد، أخصائي الآلات الكهربية والطبيعية للقياس تحت عنوان —المبدع الأعظم- قال: أما من حيث الأسباب الفكرية التي تدعوني إلى الإيمان بالله، فإنني أحب أن لأبدأ بذكر الحقائق التي لا سبيل إلى إنكارها..وهي أن التصميم يحتاج إلى مصمم.وقد دعم هذا السبب القوي من أسباب إيماني بالله ما أقوم به من الأعمال الهندسية فبعد اشتغالي سنوات عديدة في عمل تصميمات لأجهزة وأدوات كهربية، ازداد تقديري لكل تصميم أو إبداع أينما وجدته، وعلى ذلك فإنه مما لا يتفق مع العقل والمنطق أن يكون ذلك التصميم البديع للعالم من حولنا إلا من إبداع إله أعظم لا نهاية لتدبيره وإبداعه.. حقيقة أن هذه طريق قديمة من طرق الاستدلال على وجود الله ولكن العلوم الحديثة قد جعلتها أشد بيانا وأقوى حجة منها في أي وقت مضى أ هـ من كتاب (الله يتجلى في عصر العلم)ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان ص89 الطبعة الثالثة سنة 1968م.

يدل عليه الدليل الحسي، يشهد لذلك قول ذلك الأعرابي القائل: "البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير، وليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج أفلا تدل على الصانع الخبير [3] فقد أدرك هذا الأعرابي بفطرته السليمة التي فطره الله عليها أن هذه المخلوقات العظيمة التي تسير بانتظام وإحكام، ليل يعقبه نهار، ونهار يعقبه ليل، لا يمكن أن تحدث إلا بمحدث، وأن لا تسير بهذا النظام المتقن إلا بمقدر مختار، ولذلك جاءت براهين القرآن الكريم لافتة النظر إلى ما يقع عليه حس الإنسان للاستدلال بذلك على وجود الخالق ثم عبادته وحده كقوله تعالى: **{أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الأِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}** (الغاشية /17).

وقوله تعالى: **{فَلْيَنْظُرِ الأِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}** (الطارق / 5 -7)، وقوله تعالى: **{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ}** (الطور /35 -36).

وهكذا نرى أن قضية الخلق والإيجاد وإن كانت قضية جافة على الصعيد الفلسفي، فهي بدهية على الصعيد الحسي لا تحتاج إلى برهان، لأنها من ضرورات الفطرة ولذا فإن القرآن الكريم يطرحها على المخاطبين كقضية مسلمة لا تحتاج إلى استدلال، ولا تحتمل الجدل والمماراة، انظر إلى قوله تعالى مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}** (العلق /1)، والخطاب وإن كان موجها إليه فهو لأمته جميعا،والمخاطبون حين نزول القرآن يعرفون ربهم الذي خلقهم كما قال تعالى: **{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}** (العنكبوت /61)، **{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}** (الزخرف /87). وإنما كان انحرافهم في العبادة فيجعلون مع الله آلهة أخرى يعتقدون فيها النفع والضر، كما قال تعالى حكاية عنهم في إنكارهم على محمد صلى الله عليه وسلم دعوته إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وترك عبادة الآلهة المزعومة: **{أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}** (ص /5)، وإن وجد في ذلك الوقت قلة ممن فسدت فطرتهم إلى أن اعتقدوا أن التأثير في الحياة والممات إنما هو من الدهر، قال تعالى حكاية عنهم: **{وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ}** (الجاثية /24)، ولكن الله تبارك وتعالى بين أن قولهم هذا قول بلا علم، وإنما هو مبني على الظن، والظن لا يغني من الحق شيئا، قال تعالى: **{وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ}** (الجاثية /24)، كما طالبهم بالدليل على اعتقادهم الفاسد ودعواهم الباطلة، وهي قولهم: إنهم خلقوا من غير شيء فقال: **{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}** (الطور /35).

ولما كان القرآن الكريم آخر الكتب السماوية، والرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب خاتم الرسل،

---

[3] أحمد الهاشمي، جواهر الأدب من خطبة قيس بن ساعدة ج2ص 19 الطبعة التاسعة عشر سنة 1379 هـ والجاحظ، البيان والتبيين ج 1ص 163 طبعة سنة 1968 م.

والدين الإسلامي خاتم الأديان، ولن يقبل من أحد التدين بسواه كم قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الأِسْلامُ} (آل عمران /19)، وقوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الأِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} (آل عمران /85)، كان لابد أن يشتمل هذا الكتاب على الحجج والبراهين القاطعة التي تقمع شبهة كل منحرف أو معاند في كل زمان ومكان. وكذلك كان. قال تعالى: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} (الأنعام /38).

فإذا قامت للإلحاد دولة في أي عصر من العصور وأنشأت له مناهج وأعدت له مدارس لتعليم الناس الإلحاد ، وأنه لا إله والحياة مادة، وجد في القرآن الكريم الأدلة القاطعة التي تبين للعقلاء أن للمادة إلها، وأن الحياة من صنع هذا الإله {أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} (إبراهيم /10).

وإليك أدلة القرآن القاطعة التي تدحض شبه المنحرفين عن صراط الله المستقيم.

أدلة القرآن

أولا: دليل الخلق:

ودليل الخلق والإبداع الذي يعرضه القرآن بالأساليب المختلفة والطرق المتعددة شامل لجميع مخلوقات الله كلها، العظيم منها والحقير، وقد بين القرآن الكريم في تلك المخلوقات مظاهر قدرة الله وعظيم حكته وواسع رحمته، كما أوضح فيها أن القادر على الخلق هو الرب، وهو المعبود، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (البقرة /22)، بل إنه بقضية الخلق تحدى المشركين، الذين اتخذوا آلهة معبودة من دون الله أن يدعوا هذه الآلهة لتخلق أقل موجود وأحقره فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ} (الحج /73) بل بين أنه لو سلبهم الذباب شيئا مما بأيديهم لما استطاعوا إنقاذه منه، ولو اجتمعوا له، وكفى بذلك عجزا، فقال تعالى: {وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحج /73).

وقد تجلت آية الخلق والإبداع في أضخم مجالي الوجود، وهما خلق السماوا ت والأرض، وفي أعظم الظواهر الناشئة عن ذلك الخلق، كالظلمة، والنور يقول الله تعالى مادحا نفسه الكريمة على خلقه السماوات والأرض قرارا لعباده وعلى أن جعل الظلمات والنور منفعة لهم في ليلهم ونهارهم: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} (الأنعام /1)، أي ومع هذه العناية واللطف بهم كفر به بعض عباده فجعلوا له شريكا وعدلا[4].

خلق السماء:

وقد تحدث القرآن الكريم عن خلق السماء فبين أنها جرم خلقه الله تعالى وبناه ورفعه، وأنها محكمة

---

[4] ابن كثير (التفسير 123/2).

في صنعها ليس فيها خلل ولا تصدع مرفوعة بأمر خالقها محفوظة بقدرته، وأنها آية من آيات الله الكبرى المعروضة على الأنظار المصاحبة للواقع المشهود للنظر فيها بعين البصيرة لا بالبصر المجرد، حتى يأخذ المخاطب منها الدليل على وجود خالقها ومتقن صنعها، يقول تعالى: **{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ}** (ق/6)، ويقول تعالى: **{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ, الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** (آل عمران /190,191)، فتأملهم في خلق السماوا ت والأرض وما اشتملتا عليه من آيات دالة على قدرة موجدها، أدى ثمرته المطلوبة كما رسمته الآية الكريمة إذ رتبت النتائج على مقدمات التفكر دون فاصل بينهما، فتفكرهم دعاهم إلى ذكره تعالى في كل حالة من حالاتهم، قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ما علموا أن هذه المخلوقات لا يمكن أن توجد عبثا، **{رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً}** فنقلهم ذلك التفكر الواعي في هذا الكون وفي بديع صنعه إلى الإيمان بالله وبما وراء هذا العا لم المشاهد وهذه الحياة الحاضرة ولذلك طلبوا من ربهم وخالقهم وقايتهم من عذاب النار، خوفا من الخزي والعار **{سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** يقول سيد قطب في تفسير هذه الآية: "هذه هي طريقة المنهج الرباني في التوجيه للانتقال من مرحلة التأثر الوجداني بالتفكر والتدبر في خلق الله، إلى مرحلة العمل الإيجابي وفق هذا التأثر تحقيقا للمنهج الذي أراده الله[5]

كما ذم المعرضين عنها، فقال تعالى: **{وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ}** (الأنبياء/32)، وقال تعالى: **{وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}** (يوسف /105).

أي لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم، والارتفاع الكبير، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات، في ليلها ونهارها، من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي سخرها وسيرها[6].

كما أوضح القرآن أن الله هو الممسك لهذه السماوات، والحافظ لها من الزوال مع عظمها وعظم ما فيها بغير عمد تعتمد عليها، بل بقدرته تعالى العظيمة التي يفعل ما يشاء لطفا بعباده ورحمة بهم وليس لغيره من الكائنات قدرة على ذلك يقول تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً}** (فاطر /41).

---

[5] سيد قطب: في ظلال القرآن ج4ص194.

[6] ابن كثير (التفسير ج3ص178).

ويقول تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} (الرعد /2).

ويقول تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} (لقمان /10).

هذا ما أشار إليه القرآن الكريم عن حفظ الله تعالى لهذه الأحجام الهائلة بهذا التوازن العجيب، الذي يدركه الحس ويؤيده العقل والواقع.

أما العلم فيقول: إن هذا الإمساك يحصل بقوة الجاذبية التي شاهد العلماء آثارها وعرفوا قوانينها التي لم يعرفوا بعد أسرارها.

يقول الشيخ نديم الجسر: والحق ما قالوا فالجاذبية حق وقوانينها المحسوبة المتزنة المتناسبة المحكمة الدقيقة حق، ولكن هل يكون القانون الدقيق المحكم أثرا من آثار المصادفة العمياء؟ {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[7].

هذا وقد تحدث ابن القيم في كتابه (مفتاح دار السعادة) عن آيات الله الدالة على وجوده وقدرته وحكمته، في خلقه السماوا ت وإبداع صنعها، وما هي عليه من سعة وعظم خلق وحسن بناء، كما بين أنها أجمع للعجائب الدالة على وجود خالقها من كل المخلوقات الأخرى بل إنه لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السماوا ت، فقال: فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السماوا ت بالإضافة إلى السماوات كقطرة في بحر ولهذا قلّ أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها.

إما إخبارا عن عظمتها وسعتها [8]. وإما إقساما بها. وإما إرشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها. وإما دعاء إلى النظر فيها.

وإما استدلالا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة.

وإما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله إلا هو.

وإما استدلالا منه بحسنها واستوائها والتئام بنائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته.

وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن قليلها، فكم من قسم في القرآن بها كقوله والسماء والطارق، والسماء ذات البروج والشمس وضحاها، والقمر إذا

---

[7] نديم الجسر، قصة الإيمان 311 الطبعة الثالثة سنة 1389هـ 1969م.

[8] يقول تعالى: {والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون} الذاريات آية47. فقد تحدثت هذه الآية الكريمة عن سعة السماء وما اكتشفه العلم اليوم عن السماء وأبعادها لم يكن يخطر على قلب بشر، وقد أثبت العلم تلك السعة بما يعرف عند العلماء بالسنين الضوئية والتي اتفق العلماء فيها على أن الضوء يقطع في الثانية 186ألف ميل أي إنه يقطع في الدقيقة 11مليون و160 ألف ميل وفي السنة الواحدة من سنينا يقطع ستة ملايين مليون ميل أو ستة آلاف مليار تقريبا وعلى هذا التقدير نفهم معنى قولهم إن نجما ما يبعد عنا كذا سنة ضوئية اه. قصة الإيمان، لنديم الجسرص304.

تلاها، والنجم إذا هوى، فلا أقسم بالخنس والنجم الثاقب، فلم يقسم بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر، وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه، وكل ما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره ولهذا يعظم هذا القسم كقوله: {فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ, وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}[9].

ويقول سيد قطب في ظلال القرآن:

" ولم يكن المخاطبون يومذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل الذي يدركونه بعيونهم المجردة، ومن ثم قال لهم: {وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}. فأما نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به. نصيبا أكبر بكثير مما كانوا يعلمون، وإن كنا نحن أيضا لا نعلم إلا القليل من عظمة مواقع النجوم، وهذا القليل الذي وصلنا إليه بمراصدنا الصغيرة المحدودة المناظر، يقول لنا إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى... هي مجموعة المجردة التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية تبلغ ألف مليون نجم"[10].

ويقول الفلكيون إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر أو يصطدم بكوكب آخر، أو يصطدم بكوكب آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد، وبعيد جدا، إن لم يكن مستحيلا[11].

وكل نجم في موقعه المتباعد عن موقع اخوته قد وضع هناك بحكمة وتقدير.

2_خلق الأرض:

ولما كانت طريقة القرآن التي سلكها لبناء العقيدة أن يأخذ الشاهد على وجود الخالق ووحدانيته من مألوفات البشر وحوادثهم المشاهدة المتكررة ليؤكد العقيدة ويثبت قواعدها، بذلك التصور الكامل للوجود كله فلذلك نجده يلفت نظر الإنسان المقصود بتلك الهداية إلى آيات الله العظيمة في خلقه الأرض وما أودع فيها من آيات، والتي إذا تأمل فيها الناظر بفكره وعقله، علم أنها من أعظم آيات فاطرها كما قال تعالى: {وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ} (الذاريات /20) فقد خلقها الله فراشا ومهادا وذللها لعباده فيسر لهم فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وجعل لهم فيها السبل ليتمكنوا من التنقل فيها لقضاء حوائجهم

---

[9] ابن القيم (مفتاح دار السعادة ج1ص196و197 بتصرف الناشر مكتب الرياض مكتبة الرياض الحديثة.

[10] سيد قطب في ظلال القرآن ج 7ص 144،143.

[11] سيد قطب في ظلال القرآن ج 7 ص7 144 نقر عن كتاب الله والعلم الحديث ص 33.

وتصرفاتهم، كما أرساها بالجبال لئلا تميد بهم[12] فتضطرب حياتهم، ودحاها فمدها وبسطها ووسع أكنافها فجعلها كفاتا للعالم، أحياء وأمواتا[13].

وقد أكثر الله تعالى من ذكرها في كتابه ودعا الناس إلى النظر إليها والتفكر في خلقها وفيما أودعه فيها من آيات وما بث فيها من خيرات، وذكرهم بما في هذا الخلق من دلائل القصد والحكمة، وبين أنه هو الخالق لذلك كله، وليس لمن اتخذوهم آلهة من دونه قدرة على ذلك يقول تعالى: **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ، هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}** (لقمان /10،11).

فقد بين سبحانه في هذه الآية قدرته العظيمة على خلق السماوات والأرض كما بين أنه هو الرازق لجميع مخلوقاته، وإذا كان الخلق كله إليه، ولا رازق لأحد سواه، فعبادة المشركين لهذه الأصنام التي ليس لها من الأمر شيء ظلم واعتداء على حق خالقهم، إذ يخلق ويعبد غيره، ويرزق ويشكر سواه وأي جهل وعمى أوضح من ذلك [14]. كما حثهم على النظر فيها فقال تعالى: **{أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الأِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ, وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}** (الغاشية /17 _20) .

{أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} (الشعراء /7 _8).

{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى}.(طه /53 _54).

{أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ} (النمل /71).

إن من يتأمل في هذه الآيات يلمس منها أن طريقة القرآن لتكوين العقيدة وتثبيتها هي مخاطبة

---

[12] يقول ابن كثير وقوله: {وجعلنا في الأرض رواسي} أي جبالا أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس أي تضطرب وتتحرك فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلا بمقدار الربع فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والدلالات ولهذا قال: {أن تميد بهم} أي لئلا تميد بهم ا. هـ. تفسير ابن كثير ج3ص177.

[13] ابن القيم (مفتاح دار السعادة)ج1ص199.

[14] ابن كثير (التفسير ج3ص443).

الفطرة البشرية بما هو في متناول كل فرد من المواد الأولية، إذ من هذه المشاهدات التي يراها الإنسان يبني القرآن العقيدة وسنكتفي مما تضمنته الأرض من آيات دالة على وجود خالقها ومبدع صنعها ووحدانيته بنماذج من الآيات التي تدعو الإنسان إلى النظر فيها وهي مكررة أمامه، في كل لحظة من لحظات حياته، وهو غافل لا يلقي لذلك بالا، ولو تأمل فيها كما دعاه خالقه لكفاه آية على وجود خالقه ووحدانيته جل شأنه، فمن تلك النماذج :

أولا: قوله تعالى: **{فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ, أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً, وَعِنَباً وَقَضْباً، وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً، وَحَدَائِقَ غُلْباً، وَفَاكِهَةً وَأَبّاً، مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ}** (عبس /23_32).

فطعام الإنسان ألصق شيء بحياته اليومية، هل نظر فيه؟ وهل نظر في مراحله التي مر بها حتى أصبح في متناول يده؟ وما دوره هو في إنشائه؟ .

هذه الآيات تدعو الإنسان إلى النظر في طعامه، هذا الأمر الضروري المكرر الذي أصبح ليسره وإلفه غير منظور إلى دلالته على القدرة التي أبدعته ويسرته، ثم ترسم له خطوات سير طعامه مرحلة بعد أخرى ليرى هل له فيها من يد؟ ثم تصل به إلى القدرة الإلهية التي تجعل من الشيء الواحد أنواعا مختلفة، إذ أن التربة الواحدة قد سقيت بماء واحد ومع ذلك أنبتت تلك الأنواع المختلفة من الحبوب والفواكه والثمار.

فالخطوة الأولى:

صب الماء على الأرض وكل إنسان يعرف نزول المطر من السماء لا فرق بين إنسان وآخر فساكن القرية والمدينة كل منهما يعرف ذلك كما يعرفه ساكن الكوخ في الصحراء فهي حقيقة يخاطب بها كل إنسان.

أما الخطوة الثانية:

فهي شق الأرض بالنبات الطالع منها، فكما يشاهد الإنسان المطر النازل من السماء على الأرض، فكذلك يشاهد الأرض وهي تنشق عن النبات الصاعد منها فتأتي بخيراتها المختلفة الأنواع، والألوان والطعوم، من الحبوب والكروم والنخيل والفواكه الدالة على القدرة الإلهية التي جعلت من هذه التربة الواحدة والماء الواحد تلك الأنواع المتباينة في الشكل والحجم واللون والطعم والخواص.

يوضح ذلك ويبينه ما في النموذج التالي من الآيات:

ثانيا: وهو قوله تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا**

عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (الرعد /3،2).

يخبر سبحانه وتعالى، عن قدرته في خلق الأرض وأنه هو الذي مدها وبسطها لعباده فجعلها متسعة ممتدة، كما بين أن من دلائل وجوده ورحمته بعباده أن جعل في الأرض رواسي، جبالا ترسيها، وتحفظها لئلا تميد بأهلها فلا تستقر حياتهم كما جعل في هذه الأرض أنهارا وجداول وعيونا جارية في وديانها لتسقي الناس والحيوان والزروع وكل ما تنبت الأرض من الثمرات، ومن آياته أن جعل فيها من كل الثمرات صنفين اثنين، أي من كل شكل صنفان كما يقول ابن كثير[15] أو (من كل زوجين اثنين) أي أن النبات يتألف من ذكر وأنثى[16] كما ينقل سيد قطب ونديم جسر، ثم يخبر تعالى بأن من آياته الدالة على قدرته تقلب الليل والنهار يغشى أحدهما الآخر، إذ يغطي الليل النهار بظلمته، ليستريح الناس ويهدؤوا ثم يخلفه النهار بنوره ليبتغي الناس من فضله {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (القصص/ 73). وقد ختم الآية بقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} في آلاء الله وحكمته ودلائله لأنه لا يدرك تلك الآيات إلا من أعمل فكره فيها.

أما الآية التالية فقد شملت أنواعا من الآيات الدالة على الوجود الإلهي وهي آيات تحرك الحس والشعور بما تضمنته من دلائل حسية وعقلية ووحدانية، يقول تعالى: {وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ}.

فالأمر المحسوس المشهود للناس أن هذه الأرض التي يعيشون عليها فيها أماكن يتصل بعضها ببعض ومع هذا الاتصال فهي مختلفة الطبيعة فمنها السوداء الجيدة التربة ومنها السبخة، ومنها الرملية، ومنها الصخرية، مع أن الاتصالات والتأثيرات الخارجية في تلك القطع على السوية فدل هذا على أن اختلافها في صفاتها بتقدير العليم القدير[17].

---

[15] ابن كثير: (التفسيرج2ص500).

[16] يقول سيد قطب: "قوله {ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين} يتضمن هذا المشهد من مشاهد الأرض حقيقة لم تعرف للبشرية من طريق علمهم وبحثهم إلا قريبا. وهي أن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى حتى النباتات التي كان مظنونا أن ليس لها من جنسها ذكور، تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة أو متفرقة في العود. وهي حقيقة تتضامن مع المشهد في إثارة الفكر إلى أسرار الخلق. بعد تملى ظواهره ا.هـ. ظلال القرآن ج 5ص 71-72، قلت: ولعل الذي يعنيه من اكتشاف التذكير والتأنيث في عمود البنات، وإلا فالأصل معروف قديما كما في قصة تأبير النخل، وفي قصة الإيمان لنديم الجسر ص 377، 378،

[17] الفخر الرازي "التفسير الكبير ج19ص7".

ولذلك توجد في هذه القطع المتجاورات من الأرض بساتين وحدائق فيها العنب والزرع والنخيل والصنوان[18] المتماثل وغير المتماثل وتلك الأصناف المختلفة تكون في القطعة الواحدة من تلك الأرض وهي تسقى بماء واحد، ومع ذلك يأتي الخلاف الكبير في ثمارها، فمنها الحلو ومنها المر، كما أنها تأتي مختلفة الألوان والأحجام فمنها الأحمر ومنها الأصفر، ومنها الأبيض، ومنها الكبير ومنها الصغير، فمن الذي أعطى كل مخلوق في هذه القطعة شكله ولونه غير القدرة الإلهية التي منحت الحلو حلاوته وأعطت الحامض طعمه، إذ لو كان الأمر أمر طبيعة وأنه ينشأ عن طبيعة الأشياء لما وجد هذا الاختلاف الواسع، إن في ذلك آيات لمن كان واعيا، بل إن هذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته وإرادته فاوت بين الأشياء ونوع بينها ولذلك ختمت الآية بالإشارة إلى أن تلك الأمور المختلفة الناتجة عن شيء واحد آيات لقوم يعقلون حجج الله وآياته في مخلوقاته.

ثالثا_ النموذج الثالث:

يقول الله تعالى: **{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ, أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ، لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ، إِنَّا لَمُغْرَمُونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ، أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ, أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ, لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ, أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ, أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ, نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}** (الواقعة/63-74).

في الأنموذجين السابقين أوضحت الآيات قدرة الله وعظيم حكمته وواسع رحمته إذ جعل هذا الكون مهيئا لعباده سهلا لسيرهم فيه وتقلباتهم في أرجائه فالأرض ممهدة مفروشة مثبتة بالرواسي، قد فتح لهم فيها السبل وشق لهم فيها الأنهار والعيون وأجرى عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، فأنبت لهم في هذه الأرض كل الثمرات، وبين لهم في ذلك عموم قدرته المبدعة التي تغاير بين الأشياء الناتجة عن المصدر الواحد والطبيعة الواحدة، ودعاهم إلى النظر والتفكر في ذلك إذ أن تلك الآيات الغريبة العجيبة داعية لإعمال الفكر والعقل كما قال تعالى: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}**، **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}** فإنه لا يستفيد منها إلا من أعمل فكره وعقله.

وهذا النموذج من الآيات هو أيضا يقرر الحقيقة السابقة ولكن بأسلوب وطريقة أخرى، فإن القرآن

---

[18] الصنوان: هي الأصول المجتمعة في نبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل، وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار (تفسير ابن كثيرج2ص500 قال: وقال سفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه الصنوان: أي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان: المتفرقات. قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وغير واحد، وهو قول الزمخشري في الكشاف ج2ص349، وفي المفردات في غريب القرآن للأصفهاني.

الكريم وهو يدعو لإثبات قضية واحدة، هي قضية العقيدة التي استغرقت من القرآن أكثره، لم تأتي دعوته مكررة، وإنما قد غاير في التعبير والأسلوب، وكان ذلك من دلائل إعجازه.

وقد تضمنت هذه الآيات أمورا محسوسة مشاهدة، بل هي ألصق الأشياء بحياة المخاطبين، الزرع والماء، والنار، فأي إنسان في أي بيئة لم تدخل هذه الأمور في مشاهدته {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ } احتجاج بما يباشرونه بأنفسهم من حرث الأرض وإلقاء البذور التي خلقها الله فيها، إذ يوجه لهم هذا الخطاب بصورة الاستفهام التقريري عن دورهم في إثبات تلك البذور وحفظها إلى أن تؤتي ثمارها {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ} أي تنبتونه {أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} الذين فعلنا ذلك بقدرتنا وإرادتنا، أما أنتم فلم يكن لكم من عمل في ذلك إلا الحرث وهو شق الأرض وإلقاء البذور فيها، فذلك هو دوركم في هذا الزرع الذي فيه طعامكم والذي به قوام حياتكم ثم بعد ذلك تتركونه ليد القدرة المبدعة، فهي التي تنشئه، إذ تأخذ الحبة والبذرة طريقها فتسير سير الخبير العارف بمسالك الطريق، إلى الهدف المرسوم الذي قدر لها خالقها {أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} إن ذلك من صنعنا وبإرادتنا إذ لم شئنا {لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً} قبل أن يأتي ثماره ولو وقع ذلك لظلتم تفكهون في المقالة أي تُلَونون الحديث فتارة تقولون {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ} وتارة تقولون {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}[19].

{أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ, أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ, لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ}.

ذلك أن الماء أصل من أصول الحياة ويحتاج إليه كل حي كما قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاء} (النور/45) وقال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} (الأنبياء /30). من الذي أنشأ هذا الماء فكون عناصره، من الذي أنزله من السحاب عذبا تشربونه وتسقون منه أنعامكم وزروعكم؟ وقد خصه الله تعالى بوصف من أهم منافعه المتعلقة به وهو الشرب {أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ} أم نحن الذين أنزلناه من تلك المزن وهو السحاب المسخر بين السماء والأرض بقدرتنا وجعلناه عذبا زلالا مستساغ الطعم بمشيئتنا فلم شئنا لجعلناه أجاجا، مالحا لا يستساغ طعمه غير صالح للشرب ولا لإنبات الزرع، فهلا تشكرون الله الذي أنعم عليكم بإنزاله المطر عذبا زلالا.

يقول سيد قطب: "والمخاطبون ابتداء بهذا القرآن كان الماء النازل من السحاب في صورته المباشرة مادة حياتهم وموضع احتفالاتهم... ولم تنقص قيمة الماء بتقدم الإنسان الحضاري، بل لعلها تضاعفت.

---

[19] ابن كثير (التفسير ج4ص296).

والذين يشتغلون بالعلم ويحاولون تفسير نشأة الماء الأولى أشد شعورا بقيمة هذا الحدث من سواهم، فهو مادة اهتمام للبدائي في الصحراء وللعالم المشتغل بالأبحاث سواء[20].

والنار أمس الأشياء بحياة الإنسان اليومية، فلا تقوم أمور الناس إلا بها وهي التي يوريها الإنسان ويقدحها فيستخرجها من أصلها، أهو الذي أنشأ شجرتها المودعة فيها؟.

أ فرأيتم النار التي تورون، أ أنتم أنشأتم شجرتها، أم نحن الذين أنشأناها لطفا بكم إذ لا تقوم حياتكم إلا بها،كما جعلناها تذكرة لكم بنار الآخرة، ليحاسب كل إنسان نفسه، إذ لا طاقة له بهذه النار التي هي جزء من سبعين جزءا من نار جهنم كما جاء ذلك عن المصطفى [21] صلى الله عليه وسلم،وكما جعلنا النار تذكرة لكم بنار الآخرة، جعلناها أيضا متاعا للمقوين أي المسافرين لأنهم في أمس الحاجة إليها من المقيمين.

وبعد هذا العرض لهذه الدلائل الإيمانية الدالة على وجود الخالق جل وعلا الميسر فهمها وإدراكها للمخاطبين بها في كل بيئة وعلى كل مستوى، إذ إنه خطاب للفطرة البشرية، ممن يعلم خصائصها يلتفت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو القدوة لأمته فيأمره بتسبيح ربه العظيم الذي أنشأ الوجود كله بقدرته وحفظه بمشيئته **{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}**.

(3) خلق الإنسان:

{وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ} (الذاريات /21،20).

وكما بين القرآن للإنسان دوره في إنبات الزرع الذي به قوام حياته وأنه لا يتجاوز إلقاء البذر في الأرض، ثم يتخلى عنه، ليتولى إنباته وحفظه العليم القدير، كما قال تعالى: **{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}** (الواقعة /64،63).

كذلك بين له دوره في سبب وجود الجنين، وأنه لا يتجاوز أن يودع الرجل ما يمني رحم امرأة ثم ينقطع عملهما، ثم تتولى بعد ذلك القدرة المبدعة العمل وحدها، في تخليق هذا الماء المهين الذي لو ترك لحظة لتقلبات الجو لفسد وأنتن، يقول تعالى: **{نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ, أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ}** (الواقعة /58 59).

فهذه حقيقة يعلمها المخاطب من نفسه، ومن مشاهداته لأبناء جنسه فلا يستطيع ردها، وخَلْقُ

---

[20] سيد قطب (في ظلال القرآن)ج7ص142.

[21] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ناركم هذه التي يوقد ابن آدم، جزء من سبعين جزء من نار جهنم" قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: "فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها" . رواه مسلم باب في شدة حر جهنم ج4ص2184 ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي.

الإنسان من أعظم الآيات الدالة على وجود الباري سبحانه وتعالى وعلى عموم قدرته وعلمه، وكمال حكمته ورحمته وإحسانه، ولما كان خلق الإنسان من أوضح الآيات والأدلة على وجود الخالق القادر، وكان خلقه وإيجاده من أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه، فقد دعا الله تعالى عباده إلى التفكير والنظر بعين البصيرة في مبدأ خلقهم، في أطوار هذا الخلق ومراحله التي مروا بها إلى أن أصبحوا بشرا ينتشرون، يقول تعالى ذكره: {فَلْيَنْظُرِ الأِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ} (الطارق /5). ويقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً} (الحج /5).

ويقول تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الأِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} (المؤمنون /12_14).

إن المتأمل في هذه الآيات التي جاء فيها تكرار لفظ النطفة التي تكون منها هذا الإنسان ونشأ عنها، يتبين له أن قصد الشارع جل وعلا من هذا التعبير هو لفت نظر المخاطب إلى القدرة المبدعة، قدرة الله تعالى التي جعلت من هذه النطفة، أو جزيء منها بشرا سويا، مخالفا ومباينا كل المباينة لتلك النطفة المهينة، ولولا هذا البيان الرائع الذي ساقه الله في القرآن الكريم، موضحا هذه النشأة لما صدق إنسان أن وجوده بهذه الهيئة، وهذا الشكل والقّد، مزودا بالسمع والبصر، والعقل والأعضاء والجوارح التي تتفق مع مصالحه، من الحركة والقيام، والمشي والقعود، وغير ذلك فإن كل ذلك وجد من هذه النطفة، كما أنه كان من المستبعد أن يتصور إنسان أن هذه النخلة قد وجدت من هذه النواة لولا وجودها المشاهد فعلا.

ونعود إلى الآية الكريمة التي شرحت أطوار هذه النطفة، إلى أن صارت بشرا ناطقا، لنرى فيها صنعة الخالق العليم القادر الحكيم، الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين.

يقول تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الأِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} (المؤمنون /12_14)

فقد أشارت الآية إلى أصل الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، إذ كان خلقه من طين، كما تحدث عن ذلك الكتاب العزيز، أما نسله فقد جعله الباري جل وعلا من تلك النطفة التي خلقها، وهيأ لها الأسباب الموصلة لها إلى مستقرها، ذلك القرار المكين.

يقول ابن القيم: "فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف لو مرت بها

ساعة أي لحظة من الزمان فسدت وأنتنت، كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب، منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الانقياد على ضيق طرقها، واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها...

وكيف قدر اجتماع ذينك المائين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء، وجمعهما في موضع واحد جعل لهما قرارا مكينا، لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء إلى علقة حمراء مباينة للنطفة، ثم جعلها مضغة لحم، مباينة للعلقة في شكلها ولونها وحقيقتها، ثم تحويل تلك المضغة عظاما مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة كل المباينة في الشكل والهيئة، والقدر والملمس، ثم كيف قسمت تلك النطفة الحمراء إلى تلك الأجزاء المتشابهة، وبالمقدار المناسب لكل عضو، ثم اتجاه كل جزء أو خلية إلى مكانها المناسب في وقتها وأوانها وعلى حسب الحاجة إليها، فمنها ما يتجه لإنشاء العظام كل في محله، وعلى قدره الذي قدر أن يكون عليه، فمنها الصغير، والكبير، والطويل، والقصير، والمنحني، والمستدير، والعريض، والمصمت، والمجوف، فهي مختلفة الأشكال والأحجام، وذلك حسب اختلاف المنافع المنوطة بها، ثم شد تلك العظام وربط بعضها ببعض برباط قوي محكم بحيث لا يسقط عضو من آخر" [22] **{نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ}** (الإنسان /28).

ومنها ما يتجه لتكوين الأسنان، فلا يتجه إلا القدر المناسب لتكوين سن أو ضرس، لأن شكل الأسنان غير شكل الأضراس، نظرا لاختلاف منافعها، من طحن، وقطع، وزينة، ومنها ما يتجه إلى عمل العين، فلا يتجه إلا القدر الكافي لإنشائها، ثم إلى المكان المعد لتركيبها، ووجودها فلا تتجه خلية العين، إلى الظهر، أو البطن، أو القدم، وهكذا كل جزء أو خلية من تلك النطفة يتجه إلى إنشاء العضو الذي قدر له تكوينه، من أذن، أو لسان، أو حاسة شم، أو غير ذلك من أعضاء الجسم، وأعقد ذلك وأصعبه في نظر الإنسان التخصصات المتصلة بالجهاز الداخلي، كالقلب، والمعدة، والكبد، والطحال، والرئة، والمثانة، والأمعاء... والمدهش حقا اتجاه المقدار المناسب للعضو المراد تكوينه، فلا زيادة ولا نقصان، ثم اتجاه ذلك الجزء أو الخلية إلى المكان الذي قدر أن يكون فيه ذلك العضو، فلا يخطئه ولا يتعداه، والسؤال هو: من الذي هدى هذه النطفة إلى القيام بهذه الأعمال التي تعجز المتخصصين في علم الحياة؟؟.

هل لديها القدرة الكافية على تخليق هذا الإنسان؟ وإذا كان كذلك، فكيف بعد أن تكون إنسانا سميعا بصيرا عاقلا، يعجز هذا الإنسان عن خلق بعوضة أو ذبابة؟؟.

وصدق الله العظيم إذ يقول: **{هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي**

---

[22] لبن القيم (مفتاح دار السعادة ج1ص187-189) بتصرف.

ضَلالٍ مُبِينٍ} (لقمان /11).

في ظلمات ثلاث: والأعجب من ذلك أن هذا الخلق المعقد، والتركيب المشتبكة فيه الأعضاء بعضها ببعض يتم في ظلمات ثلاث كما عنه القرآن الكريم، وبين أن القادر على ذلك هو الرب الذي ينبغي أن يُعبد وحده، فلا إله غيره، ولا رب سواه إذ الإنسان لا يملك من أمر هذا الوجود شيئا.

يقول تعالى: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} (الزمر /6).

فقد بين سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة، قدرته المطلقة، على خلق هذا العالم كله من نفس واحدة، وهي نفس آدم عليه السلام، ثم خلق منها زوجها وهي حواء، واستمرار الخلق المتواصل بعد ذلك كان من ذكر وأنثى إلا عيسى عليه السلام، فقد كان من أم بلا أب، فالآية تشير إلى القدرة التي إذا أرادت الشيء قالت له كن فيكون بسبب وبغير سبب، فالله خالق الأسباب، ومسبباتها، ولذا فإن الآية السابقة من سورة الواقعة بينت دور البشر في ذلك الخلق، وأنه لا يتجاوز ذلك الالتقاء بين الرجل والمرأة، فيختلط الماءان أمشاجا، ثم يتركانه في تلك اللحظة للقدرة التي تخط الخطة لتكوين الجنين من تلك النطفة في الظلمات الثلاث، التي هي ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وظلمة البطن، وفي تلك الظلمات الثلاث يتم ذلك الخلق العجيب، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (آل عمران /6).

والخلق بعد الخلق الذي تشير إليه الآية الكريمة، هو خلقه نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظاما... كما بينته الآيتان من سورة الحج والمؤمنون، ثم إنشاؤه بعد تلك الأطوار خلقا آخر مباينا للخلق الأول، مباينة تامة فما أبعد النقلة الهائلة بين النطفة والإنسان الذي صوره ربه فأبعده وجعله في أحسن تقويم.

يقول مؤلف كتاب (إيثار الحق على الخلق): "وقد جمع الله تعالى ذكره دلالتي الأنفس والآفاق في قوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} (فصلت /53). وذلك أنا نعلم بالضرورة وجودنا أحياء قادرين، عالمين، ناطقين، سامعين، مبصرين، مدركين، بعد أن لم نكن شيئا، وأن أول وجودنا كان نطفة مهينة مستوية الأجزاء والطبيعة، غاية الاستواء، بحيث يمتنع في عقل كل عاقل أن يكون منها نغير صانع حكيم، ما يختلف أجناسا، وأنواعا، وأشخاصا، أما الأجناس فكما نبه عليه قوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ} (النور /45).

وأما الأنواع: فنبه عليها بقوله: {أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ

مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى} (القيامة /37-39).

وأما الأشخاص: فبقوله تعالى: {قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ, مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ, مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ, ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} (عبس /17_20).

وبيانه أنه خلق من نطفة مستوية الطبيعة، فكيف يكون منها ما يبصر، ومنها ما يسمع، ومنها ما يطعم ومنها ما يشم، ومنها الصلب ومنها الرخو.

ونعلم أنها قد تغيرت بنا الأحوال، وتنقلت بنا الأطوار، تنقلا عجيبا، فكنا نطفا، ثم علقا، ثم مضغا، ثم لحما ودما، ثم عظاما صلبة، متفرقة في ذلك اللحم والدم تقويهما، وعصبا رابطة بيت تلك العظام صالحة لذلك الربط، مما فيها من القوة والمتانة، ثم تركب من ذلك آلات وحواس حية موافقة للمصالح، مع ضيق ذلك المكان وشدة ظلمته، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} (الزمر /6)[23].

وبعد فهذا هو حديث القرآن عن خلق الإنسان من تلك النطفة، في تلك الظلمات الثلاث، فماذا يقول العلم عن ذلك؟.

الحقيقة إننا في هذا البحث لا نريد إيراد نظريات نفسر بها القرآن الكريم، ذلك لأن النظريات، أمور بنيت على التقدير والتخمين، فلم يكن لها أصل ثابت تعتمد عليه، ولذا فهي تنقض اليوم ما قررته بالأمس وقد تنقض غدا ما قررته اليوم، والقرآن كلام الله الحق الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي هو حق بإنزال الله إياه، كما قال تعالى: {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ} (الإسراء /105).

ولذا فإننا سنقتصر على ما ورد ذكره في كتاب الله تعالى ففيه الكفاية، لهداية البشرية.

وكل قول يقال، ويحمل به كتاب الله فالخطأ الناتج عن ذلك، هو من عقم فهم ذلك القائل وتفسيره، أما القرآن فحق ثابت، وسيتسع لكل حقيقة علمية ثابتة لا تتغير، إذ أنه الكتاب الذي لا تُبلى جدته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

[23] ابن الوزير، إيثار الحق على الخلق ج1ص44، 45 مطبة الآداب والمؤيد بمصر القاهرة سنة 1318هـ.